﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦ ﴾

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥ ﴾: ما أجمل التعبير القرآني وألذه، وما أحسن سبكه ونظمه، حينما ينتقل من أسلوب إلى أسلوب ، فقد أتى بطريقة الاستفهام، لتنبيه الأفهام، ولفت الأنظار.

والمخاطب نبينا محمد ﷺ، وما من قصة جرى تكرارها في القرآن، كقصة موسى عليه السلام ! ويعرضها بصور متنوعة. وسر ذلك، والله أعلم، ما تضمنته قصة موسى عليه السلام من المواقف الجليلة، والعبر العظيمة، ولتشابه حال موسى، عليه السلام، بحال محمد ﷺ؛ فإن موسى عليه السلام أخرج أمته من الكفر، والظلم، والبغي، وأسس دولة كما محمد ﷺ. ولأن اليهود كانوا شوكة في جنب المسلمين في المدينة، فأراد الله أن يبين حالهم، وأخلاقهم، وصنيعهم مع نبيهم.

وها هنا إشكال ! قد يقول قائل: أليس الله تعالى ذكر ما يدل على أن قصة يوسف عليه السلام أحسن القصص؛ فإنه قال بين يدي سورة يوسف ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ ﴾[يوسف3]، فلم لم يقع تكرارها، كما تكررت قصة موسى عليه السلام ؟

والجواب: أن قصة يوسف، عليه السلام، قصة من القصص، وقصص غيره من الأنبياء أعظم فائدة ، فإن أنباء الرسل، وما جرى بينهم وبين أقوامهم من المسائل حول الكفر والإيمان، أكثر أهمية من قصة يوسف عليه السلام، فلا يلزم أن يكون هذا الاستهلال في أول سورة يوسف خاصاً بتلك القصة، وإنما هو وصف لقصص القرآن جميعاً، لكن، لما كانت هذه السورة من أولها إلى آخرها قصة، ناسب ذكر ذلك في أولها. وربما يقال : أنه أتى بهذا التعبير " أحسن القصص " بين يدي قصة يوسف، لأنها من الناحية القصصية البحتة، فيها ما ليس في غيرها من السور، من عنصر المفاجأة، والتنقل من حال إلى حال، ومن نعمة إلى نقمة، ومن نقمة إلى نعمة، ومن منحة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة، ومن عز إلى ذل، ومن ذلٍ إلى عز. ففي هذا التنوع، من الناحية القصصية الفنية البحتة ما ليس في سواها من القصص.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾: لم يسق سبحانه جميع قصة موسىعليه السلام هنا، وإنما ذكر سبحانه موقفاً هاماً، مؤثراً، عظيماً، جليلاً، وهو تكليم الله له تعالى له دون واسطة . فإن موسى، عليه السلام، لما سار بأهله من صحراء مدين، وقارب الطور، آنس ناراً فقصدها، فلما اقترب من النار كلمه الله عز وجل. فكان هذا الموقف بالنسبة لموسى أشرف موقف، ولا ريب.

والمناداة هي الصوت لمن بعُد ، كما أن المناجاة هي الصوت لمن قرب﴿وَنَدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم:52] فالمناجاة للقريب، والمناداة للبعيد.

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ : المقدس: المطهر، واسمه طوى ، هكذا رجح ابن كثير، رحمه الله، وغيره. وقيل: أنه بمعنى طء، يعني أمر لموسى بالوطء، والسير عليه. وقيل: معنى طوى: الذي طويته، أي طويته يا موسى وسرت فيه. وقيل: أن طوى: بمعنى مرتين، يعني: إذ ناده ربه بالواد المقدس مرتين، وكأنه قصد بالمرتين المناداة، والمناجاة، فصارت الأقوال في معنى " طوى " أربعة، أقربها أنه اسم للوادي .

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: هذا هو نص النداء، نص تكليم الرب لموسى الكليم. وفرعون لقب يطلق على من ملك مصر من أهلها. وفي سورة يوسف سمى الله صاحب مصر ملكاً فقال:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾[يوسف:50] وفي هذا إشارة إلى أن ملوك مصر زمن يوسف،عليه السلام، غير الفراعنة، وهم (الهكسوس). وهم قبائل أغارت على مصر في فترة معينة، أثناء حكم الأسر الفرعونية المتعاقبة. أما في زمن موسى، عليه السلام، فقد عاد الفراعنة إلى ملك مصر . والمقصود أن (فرعون) لقب لمن ملك مصر، كما أن (كسرى) لقب لمن ملك الفرس، و(قيصر) لقب لمن ملك الروم، و(المقوقس) لقب لمن ملك القبط، و(النجاشي) لقب لمن ملك الحبشة ، و(الخاقان) لقب لمن ملك الترك، وهكذا .

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾: أي تجاوز الحد وتمرد وتجبر، قبحه الله، فكان يقتل أبناء بني إسرائيل، ويستحيي نسا ءهم. وبلغ به الأمر أن خرج على قومه مرة بصورة المجتهد، المستفرغ

لطاقته، واجتهاده، ونصحه، قائلاً: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص٣٨]! فآدعى الألوهية، كما ادعى الربوبية هنا.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾: هذا من التلطف في الدعوة! لم يقل له: زكِّ نفسك! بصيغة الأمر، وإنما تلطف في الأسلوب فقال له: ﴿هَل لَّكَ﴾ يعني: أدعوك، وأعرض عليك ﴿أَن تَزَكَّىٰ﴾: والتزكية تعني التطهر، بتنقية النفس من شوائب الشرك، والغل، والأخلاق الرذيلة، والتصرفات القبيحة .

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾: وهذا لون آخر في التلطف، فإنه وضع نفسه بموضع الهادي، والدليل كأنما يقول: أنا كالذي يمشي بين يديك، والدليل الذي يدلك على الدرب. وهذا من التواضع في الدعوة لأنه يخاطب ذا سلطان، ومعلوم أن الخطاب لأصحاب المقامات، والوجاهات، ليس كالخطاب لآحاد الناس، فينبغي أن ينزل الناس منازلهم. يقال إن واعظاً دخل على أحد الخلفاء، فوعظه موعظة جافة، غليظة، فقال له الخليفة : يا هذا! إن الله قد بعث من هو خير منك، إلى من هو شر مني، فقال ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه٤٤]، ولا ريب أن الله تعالى يعطي على الرفق مالا يعطي على العنف .

وفي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ تلطف أيضاً؛ حيث ذكَّره بربوبية الله له. وقوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ : أي يثمر ذلك لك خشية، وينقشع ما في قلبك من قسوة وغلظة.

إذاً غاية الدعوة التزكية، وثمرتها الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر٢٨]، إذا أردت أن تقيس حالك فانظر خشية الله في قلبك. العالمون بالله حقاً هم أهل الخشية. لا تنظر إلى ما عندك من كتب، ودفاتر، بل انظر إلى ما في قلبك، فإن كان قلبك مخبتاً، خاشعاً لله ﷻ، فأنت من أهل العلم؛ لأن الخشية ثمرة هذا العلم. وإلا لا فائدة من كثرة المرويات، والمحفوظات، مع قسوة في القلب. وليس في هذا تقليل من أهمية التحصيل، ولكن على طالب العلم أن يوظف علمه في خشية الله، فإن العلم النافع، هو الذي يورث الخشية.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾: أي العلامة الباهرة.

لما أبى واستكبر عرض عليه أن يريه آية ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء:30-33] يعني: ألقى عصاه، فاستحال حيةً حقيقية، وأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي تبرق بيضاء، من غير سوء! آيتان عظيمتان، باهرتان، حتى إنه أرتج على فرعون، وأخذ يخبط في التهم..

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾: يعني: ومع أنه تحدى، ولم يصمد أمام التحدي ، فقد كذب وعصى .

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾: وفوق ذلك، ما ترك الأمر مغلقاً، بل أدبر يسعى سعياً حثيثاً في الصد.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾: أي جمع الناس، وأعلن قائلاً ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني زاده ظهور الحق إصراراً على الباطل، حتى إنه قال لهامان، وزيره ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾[غافر٣٦-٣٧]وغير ذلك من صنوف الطغيان.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾: اختلف المفسرون في هذا، فقيل إن المراد بالآخرة: آخر كلامه، والأولى أول كلامه، فآخر كلامه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وأول كلامه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] ، وقيل: أن المراد بالآخرة والأولى: الآخرة، والدنيا. فالله تعالى أذاقه عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة؛ عذاب الدنيا بالغرق، ومن قبل الغرق الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وأما في الآخرة، فلا يخفى ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر٤٦]؛ وإنما قدم الآخرة لأنها أشد، وقيل في تفسير الآخرة والأولى: يعني أول عمله، وآخره ، وهو قريب من المعنى الأول .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾: أي موعظة، وتوقظة، لمن في قلبه خشية، لأن الآيات، والمواعظ لا ينتفع بها إلا أهل الخشية .

فالمعنى الإجمالي لهذه الآيات: أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضرب مثلاً للكافرين، المنكرين للبعث، بقصة جبار من الجبابرة الظالمين، وكيف كانت نهايته، فذكَّر الله تعالى بقصة موسى، عليه السلام، حينما أمره ربه أن يقصد فرعون بسبب طغيانه، وجبروته، وتمرده، وأن يعرض عليه الإيمان، وطريق الهدى، والخشية، والتزكية، فركب رأسه وأبى، وبالغ في إنكاره، وجبروته، وكفره، فادعى الربوبية، بعد أن كان قد ادعى الألوهية . فكان أن أذله الله تعالى، وأخزاه خزياً ما بعده خزي، فأهلكه الله بألطف الأشياء وهو الماء، فأغرقه فيه، ثم يوم القيامة يحرقه بالنار. وفي هذا عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فلينتبه هؤلاء المشركون، المنكرون للبعث، الذين يظنون أنهم إنما يمتعون في هذه الدنيا، ثم ينتهي كل شيء ؛ فلا بعث ولا نشور.

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: عناية القرآن بقصة موسى، عليه السلام، وكثرة تكرارها، وتنوع عرضها .

الفائدة الثانية: إثبات صفة الكلام لله، سبحانه، بصفة المناداة، فهو يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء.

الفائدة الثالثة: أن كلام الله، عز وجل، متعلق بمشيئته؛ لأنه قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ﴾، و (إذ) تدل على ظرفية زمنية، فهذا يدل على أن الله يتكلم متى شاء، خلافاً للأشاعرة، والكلابية، والسالمية، وغيرهم من فرق الصفاتية، الذين يقولون إن كلامه هو المعنى القديم القائم في نفسه، وليس من صفاته الفعلية، بينما يعتقد أهل السنة إن كلام الله قديم النوع، حادث الآحاد، فهو قديم النوع بمعنى أن الكلام صفة ذاتية له باعتبار أصله، ولكنه يتجدد باعتبار آحاده، وأفراده ودواعيه .

الفائدة الرابعة : فضل موسى، عليه السلام. ولهذا يقال: موسى الكليم .

الفائدة الخامسة: فضل وادي طوى وشرفه ؛ لأن الله طهره فقال: ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

الفائدة السادسة: قبح الطغيان وفاعله، ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، فالطغيان مرذول، مذموم.

الفائدة السابعة: التلطف في الدعوة، لاسيما مع أهل السلطان ، فلكل مقام مقال.

الفائدة الثامنة: بيان غاية الدعوة وثمرتها ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩﴾

.

الفائدة التاسعة: تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات، التي يسميها بعض العلماء المعجزات. فلما علم الله تعالى، أن من الناس من لا يستجيب إلا بآية ظاهرة، خارقة للعادة، أجرى على أيدي رسله هذه الآيات، ولم يكلهم فقط إلى مضمون الدعوة، بل نوَّع دلائل النبوة. وأعظم الأنبياء آية هو نبينا محمد ﷺ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ ، أَوْ آمَنَ – عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"متفق عليه[1]، فأعظم آيات نبينا، ﷺ،القرآن العظيم، آية خالدة ، وها نحن نقرأ هذه الآيات العظيمة فنعجب، وننبهر، ونندهش من تأثيرها، ومعانيها، وحكمها ، كما أيده بآنشقاق القمر والإسراء والمعراج، وغيرها.

الفائدة العاشرة : غلظ كفر فرعون، وشدة عناده. ولا يعلم أحد من البشر اشتهر بإنكار الربوبية مثل فرعون، فإنه أنكر ربوبية الله، وادعاها لنفسه، أنكرها بقوله﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، وادعاها لنفسه في قوله:﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، ثم رتب عليها دعوى الألوهية بقوله ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[القصص٣٨] !فلذلك صار مضرب المثل في الكفر، الجبروت، والإلحاد .

الفائدة الحادية عشرة: شدة أخذ الله للظالم الطاغي ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

الفائدة الثانية عشرة: وجوب الاعتبار، والاتعاظ بمصارع الظالمين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦﴾.

الفائدة الثالثة عشرة: أن الخشية سبب الانتفاع بالمواعظ، لأن صاحب القلب القاسي مهما رأى، ومهما سمع، ومهما وقع له، مقفل على قلبه، أما صاحب القلب اليقظ الواعي، الذي تسري فيه نسائم الخشية يتأثر، تأمل في حال أهل العلم النافع ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

[1] صحيح البخاري (7274)، صحيح مسلم(152).

ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾[الإسراء:١٠٧- ١٠٩]، ما الذي أبكاهم ؟ مجرد آيات طرقت أسماعهم ، لكن هذه الآيات ليست مجرد حروف معجم، بل حروف وكلمات وجمل ذات معاني ، لامست قلوبهم، فانفعلت تلك القلوب، وهملت تلك العيون، وخرت تلك الأعضاء خروراً، من أعلى إلى أسفل﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴾يجعلون أذقانهم في الرغام إجلالاً لله، وخشية له،. وتأمل في حال مؤمني أهل الكتاب﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[القصص٥٣]، وأخبر الله تعالى عنهم في موضع آخر، فقال﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[المائدة:٨٣]، فليحرص كل مؤمن على أن يحي قلبه بخشية الله، هذه خشية تلين القلب ، وتجعله حسن الاستقبال للمواعظ والعبر، و الانتفاع بالآيات الكونية والشرعية. نسأل الله أن يرزقنا خشيته في السر والعلن .